

الطرب فى الموسيقى العربية

موسيقى وعصر الطرب الشرقى

وائل قاقيش

من أهم ما تمتاز به الموسيقى العربية التقليدية شمولها على مجموعة كبيرة من الأجناس الغنائية والآلية، وتكمن أهميتها بأنها تحتوي على مادة تدعى الطرب أو غيرها من الكلمات المستخدمة مثل "السلطنة" أو "النشوة"، والتي هي عبارة عن كلمات تستخدم للتعبير عن حالة روحانية وجسدية تعبّر عن الإنسجام التام والكلي عند سماع بعض القوالب الموسيقية مثل الموال (الارتجال الصوتي، سواء كان مصاحباً بآلة موسيقية أو بدون) أو تقاسيم آلية ارتجالية، أو أغنية، حيث ينفعل معها المستمعون هاتفين بعبارات تظهر شدة الإعجاب والتقدير مثل ترديد كلمة "الله" أو كلمة "يا سلام" أو "يا عيني"، هذه الكلمات التي نسمعا مراراً عند سماعنا إلى مطرب جيد وقادر على إيصال أحاسيسه الإنسانية وإشراك المستمعين فيها.

تعد مادة الطرب العمود الأساسي في الموسيقى العربية، وما وصلنا على سبيل المثال من حضارة الأندلس والتي لا تزال تعتبر مجد العرب والمسلمين من بغداد إلى إسبانيا، الا قليل من مجموعة التراث الموسيقي الهائل التي سبقت هذا العصر، ابتداءً من العصر الأموي والعباسي واختلاطة بموسيقى الشعوب الأخرى كالفارسي والمصري والشمالي أفريقي وبلاد اوروبية وأخرى، وانتهاءً بلوحات الفن الموسيقي في الأندلس.

وصلت الفنون الموسيقية في ذلك الوقت إلى ذروتها وغازرة معاصريها وروادها والذين برعوا في مهارة العزف على الآلات الموسيقية العديدة والمختلفة وتوجههم إلى تأليف اشكال غنائية وآلية مبنية على أسس مقامية وإيقاعية متطورة وراقية. احتوت الفرق الموسيقية على عدد كبير من العازفين والمغنين والراقصين التزموا بتقديم وصلات طربية تستمر إلى ساعات تتجلى بها النفوس وتصل إلى قمة النشوة والجمال. لم يصلنا من هذه الموسيقى إلا القليل فقد ضاعت واختفت الكثير من هذه الفنون كان أهمها التدوينات الموسيقية. فبعد الهجرة من بلاد الاندلس استقر وتناثر كثير من الموسيقيين في مناطق شمال افريقيا مثل المغرب العربي وليبيا وتونس والجزائر، منهم من حفظ التراث شفويا وتناقلوه ومنهم من اقتنى بعض المدونات البسيطة والتي اهتم بعض المختصين الدارسين لهذا التراث بتحليلها وتدوينها من جديد وحفظها في بعض المكتبات ومراكز العلوم الثقافية والتراثية. كانت مسؤولية جمع هذا التراث وفقاً إلى أصوله وبنيته والذي أخذ اسماً متعددة وفقاً للمكان التي استقرت به مثل النوبة أو النوبات في الجزائر، والطرب الاندلسي أو موسيقى الآلة في المغرب والمألوف في ليبيا وتونس، وما

اصبح يسمى بالموشحات الاندلسية في مصر وبلاد الشام (والتي اخذت تدريجياً تتأثر بالاسلوب التركي).

ففي شمال افريقيا، اصبح المخزون الموسيقي الاندلسي الذي يعتبر من ارقى الفنون الموسيقية المتوارثة أو ما يسمى بالموسيقى الكلاسيكية العربية ومكانها أصبح منحصراً في أماكن مخصصة ويقدم في مناسبات معينة تستقطب لها مستمعيها الخاصين وتجذب اليها الباحثين والمتقنين ذوي الذوق الفني الرفيع.

في بدايات النهضة الموسيقية الحديثة والتي كانت خلال أواخر الحكم العثماني وبدايات التقارب الاوروبي في المنطقة العربية في منتصف القرن التاسع عشر (1850)، انتعشت حركات موسيقية عدة في مصر وبلاد الشام وافتتحت كثير من الملهي والمقاهي والمسارح، وبتشجيع من بعض السادة والحكام والولاة للموسيقى والاهتمام بها ومكافأة الموسيقيين المتفوقين. حيث بدأ الاهتمام واضحاً بالموسيقى من عشاق الفن الطربي الذين ساهموا في خلق أشكال وقوالب جديدة وطربية اصبحت الأساس في الموسيقى العربية اليوم، فكان لغناء "الدور" المصري دوره الرائد والمهم أعتمد على صياغة القصيدة الشعرية "باللهجة العامية" حيث أبدع الكثيرون في أداء هذا اللون من الغناء الطربي وأجاد به هؤلاء ذوو الأصوات العذبة والقوية، أصوات احتوت مدى واسع من الدرجات الصوتية تزيّنها "العُرب" أو التزيينات والتقلبات المقامية الذكية والجميلة في تعابير حسية عميقة منسجمة كل الانسجام مع إيقاع الوحدة الكبيرة.

وكان "التخت" الشرقي (فرقة موسيقية صغيرة مكونة من عازف قانون، عود، كمان، ناي وإيقاع) يتربّع على العرش في القصور وبيوت الاثرياء، يقوده مطرب رئيسي يُسمى "التخت" على أسمه، ويرافقه مجموعة من الرديّدة، يقدم معزوفات وأغاني متنوعة من القوالب الموسيقية التقليدية مثل الدواليب والبشارف والسماقيات والادوار والموشحات. كان يتألق "التخت" بالمحاورات الإرتجالية تارةً بين الآلات الموسيقية وتارةً بين الآلات والمغني والتي بدورها تشكّل أسمى لحظات الطرب بمنتهى الجمال والروعة.

في بدايات القرن العشرين اصبح هذا اللون الغنائي الطربي يتقلص ويقتصر على مجموعة قليلة من المبدعين. ومن حسن الحظ حافظ مجموعة من المهتمين على عدد لا بأس به من التسجيلات القديمة التي تمت عن طريق شركات التسجيل العالمية في نهايات القرن 19 وبدايات القرن 20 (اسطوانات 78 وأجهزة البكرات)، حيث تم تسجيل بعض من أعمال مشاهير هذه الحقبة مثل عبدو الحامولي، سيد درويش، عبد الحي حلمي، صالح عبد الحي،

الشيخ سيد الصفتي، يوسف المنيلوي، منيره المهدية، أبو العلى محمد، محمد العاشق، عبداللطيف البنى وفنانين آخرين متميزين.

أما في مصر وسوريا فبرز نوع آخر من الطرب وهو الأغنية الطربية الخفيفة والتي كانت تسمى بالطقطوقة والتي هي بدورها حافظت على الروح الشرقية بألحانها البسيطة المرحية وإيقاعاتها الراقصة، مقدّمة بأسلوب طربي بحت وبنفس الوقت محافظة على عمقها الفني وموضوعاتها الإنسانية والفكرية والاجتماعية. أصبح هناك أنماط عديدة للأغنية الطربية، فمنها ما كان ترفيهياً خفيفاً وآخر ملتزماً ومتقناً. فكان الترفيهي الخفيف ومكانه معظم الأحيان في المقاهي والأفراح والملتقيات الشعبية وأحياناً الحانات والمقاهي الليلية. والملتزم الجاد كان مكانه المسرح أو دور العرض الفخمة كالأوبرا وغيرها. اختلف المضمون الشعري والإيقاعي أحياناً ولكن الشكل الموسيقي كان متقارب في كلا الأسلوبين، فوجود التخت كان رئيسياً في كلاهما، وكان العازفون من أمهر الموسيقيين وأشهرهم، وكان المؤدين يبدعوا في إجادة الغناء حيث اللفظ السليم وسهولة التلاعب بالمقامات والطبقات الصوتية.

تحول الغناء في بداية السبعينيات من طربي مقامي يركز على القصيدة المتقنة الملتزمة سواء دوراً أو موشحاً أو طقطوقة إلى مرحلة جديدة من الغناء العربي وهو الغناء العاطفي أو الرومانسي حيث كانت للموسيقى الكلاسيكية أو الرومانسية الأوروبية أبلغ الأثر في تطور وصقل هذا النوع. أخذت أهمية التخت الشرقي تتلاشى تدريجياً وحلت محله فرق الاوركسترا الكبيرة المتعددة الآلات والتي اطلق عليها اسم (الفرقة)، ودخلت فيها عدة آلات غربية لم تكن موجودة في الفرق الصغيرة أو التخت مثل الكونترباص والبانجو والتشيللو، وبعدها دخلت آلات موسيقية كهربائية كالجيتار والاورج والباص وأحياناً الاوكورديون والبيانو، وتدرجياً في الثمانينات أضيفت آلات مثل الساكسفون والكلارينيت وآلات نفخ عديدة وآلات إيقاعية مثل الدرامز وكان التركيز الأكبر على التكنولوجيا والذي أبتعد بعض الشيء عن الأداء الطربي.

كانت هناك محاولات كثيرة لبعض الموسيقيين والفرق المهمة بالتراث للحفاظ على الأسلوب والأداء الشرقي وعلى الآلات الشرقية، لكنها أصبحت في الثمانينات مهملة ومهمة مستحيلة. حيث ارتبطت الموسيقى والقوالب الرومانسية الحديثة بالذوق العام، وقلّت نسبة السميعة وأصحاب الذوق الفني التقليدي في معظم أنحاء الوطن العربي، وحلت مكانه ستوديوهات تعمل إلكترونياً على دمج وتوزيع تركيبات صوتية وسمعية حديثة هدفها الأغنية السريعة الراقصة! والتي انتهت ارتباطها بالاصول الفنية التقليدية المتعارف عليها، والأشعار الموزونة، واللحن الطربي الاصيل.

تميز المطربون القدامى بأنهم قدموا أغنيات تتناسب مع الذوق الفني العام في ذلك الوقت، ولا يزال البعض القليل من مطربي اليوم يحاول الحفاظ على هذا الأسلوب المميز من الغناء الطربي ومنهم بعض الفنانين (وهم اقلاء) من الذين أخذوا على عاتقهم الالتزام بتقديم الأغنية العربية الطربية المتكاملة والمتقنة. فكان دورهم على الغالب حفظ وترداد أغاني عمالقة الغناء العربي من السيدة أم كلثوم والموسيقار محمد عبد الوهاب وفريد الأطرش وغيرهم الكثير ممن غنى أغاني الطرب والتي بدورها أوصلت بعضهم إلى الشهرة والنجومية، حيث أعاد بعضهم تسجيل مجموعة من أغنيات عمالقة الزمن الجميل بأصواتهم على إسطوانات "رقمية". وبعضهم من حاول تقديم نوع طربي جديد وخاص بهم، ولكن محاولاتهم حققت لهم نجاحاً كبيراً فقط لدى الجمهور الشاب الحديث والذين إنقطعت صلتهم مع التراث الموسيقي العربي التقليدي. نتمنى لهذا الجيل الحديث أن ينهج ولو قليلاً مما صدى في آذاننا من عصرنا الماضي ويعود ليملاً الجو بأغاني الطرب الأصيلة ليعود بنا إلى ذكريات الزمن الجميل والأمسيات الساحرة في حديقة تزهر بألوانها الجذابة وبرائحة زهورها العبقية.